

الصحراء والإنسان في رواية الملحد لعبد الرشيد هميسي

The Desert and the Human Dimension in Abdelrashid Hemissi's *The Atheist*

محمد الصالح زغدي 1، *

1 جامعة الوادي (الجزائر) zeghdi-medsalah@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2025/12/27

تاريخ المراجعة: 2025/09/19

تاريخ الإبداع: 2025/05/16

ملخص:

في هذا المقال الذي يدور في فلك حضور الصحراء في النص السردي الجزائري، أردت أن أقدم صورة للصحراء والإنسان في رواية الملحد للقاص عبد الرشيد هميسي، وهو يصور لنا حياة شخص عاش في مرسيليا ثم باريس. رحلة الإيمان في الكنيسة ثم الكفر بكل شيء بعد ما خاب ظنه في الكنيسة ليرحل إلى الجزائر ثم إلى صحرائها (حاسي خليفة) ليعيش تجربة فريدة من نوعها ليصل في آخر المطاف إلى الإيمان بالله الواحد القهار عن طريق التأمل و التفكير. كان للصحراء في هذه الرواية الحظ الأوفر في تجسيد القيم و العادات وكذلك التأثير والايحاء للوصول إلى الحقيقة المطلقة وهي الإيمان.

الكلمات المفتاحية: المكان، الصحراء، الالحاد، الإيمان، الانسان.

Abstract:

In this paper, to be presented to the national conference on The Presence of the Desert and the Sea in the Algerian Narrative Text, I want to present a picture of the desert and the human being in Abd al-Rashid Hamisi's novel The Atheist, as he depicts the life of a person who lived the journey of faith in Marseille, then Paris, and then disbelief in everything after he was disappointed by the church. He moved to Algeria and then to its desert (Hassi Khalifa) to live a unique experience of belief in the Allah through reflection and thinking. The desert in this novel had the biggest chance of embodying values and customs, as well as influence and inspiration to reach the absolute truth, which is faith.

Key words: Place; Desert; Atheism; Faith; Human Being

تقديم:

إنّ الناظر بتفحص في التجربة الأدبية، وما تزخر به من أفكار وقيم وعادات وتقاليد وأنساق ثقافية ليجد نفسه وجها لوجه أمام عناصر كثيرة تضبط الإبداع الأدبي، وتحدد الجنس الأدبي لكل فن أدبي، ومن هذه الأجناس، الرواية التي تعد جنسا أدبيا يكاد يتربع على ساحة الإبداع في هذا العصر، بما يقدمه من شكل مصغر لحياة الإنسان، وما تزخر به من حركة وسكون وهي تعيش يوميات الناس، ومن بين العناصر الفاعلة في العمل الروائي المكان وما يحمله من رمزية وايحاءات وما ينقله لنا من حنين وذكريات وانفعالات من حياة الشخصيات في الرواية.

*المؤلف المراسل

وفي هذا المقال سأحاول الوقوف على صورة المكان عامة، وعلى صورة الصحراء خاصة، في رواية الملحد للقاص عبد الرشيد همدي، هل استطاع القاص توظيف المكان في الرواية توظيفاً محكماً؟ وهل كانت الصحراء بكل ما تحمله من رمزية عنصراً فاعلاً في الرواية، وفي تجسيد الثقافة والقيم والأفكار والتأثير على الشخصيات؟ وهل كان للصحراء الصوت المؤثر على القارئ، وهو يتعرف على ما تزخر به من حياة؟

أما المنهج المعتمد في هذه المقاربة فهو المنهج الوصفي التحليلي المناسب لهذا النوع من الدراسات. وقبل الشروع في الوصف والتحليل، سأحاول في البداية أن أقف على المكان في العمل الروائي ليكون بوابة للعمل النقدي الذي سأقوم به في هذه المداخلة.

أولاً: المكان في رواية الملحد:

(1) تحديد مفهوم المكان الروائي:

المكان مساحة ذات أبعاد هندسية، وهو نظام من العلاقات المجردة، يجمع بين الأشياء الملموسة والمجردة، و"المكان وسط يتصف بطبيعة خارجية أجزائه إذ يتحدد فيه موضع أو محل ادراكاتنا وهو يحتوي على كل الإمدادات المتناهية، وإنه نظام تساوق الأشياء في الوجود ومعيتها الحضورية في تلاصق وممارسة وتجاور وتقارن"¹ وللمكان أهمية كبيرة في العمل الروائي، إذ يمثل المكان الأرضية التي تشيد عليها جزئيات العمل الروائي كله² ولذا يعد المكان حاضنة وإطاراً عاماً تتحرك فيه الشخصيات وتتفاعل معه، ولذا يتحول المكان إلى ضرورة منطقية في العمل الروائي القائم على الحكيم، وبالتالي أي نص مهما كان جنسه الأدبي "لابد أن يتوافر على هذا العنصر مادام فعل الحكيم هو الأساس الذي ينطلق منه ويعود إليه ويتمظهر من خلاله وبوساطة آلياته وقوانينه"³ من هنا يتشكل للمكان استقلال نسبي ووجود ثابت أو أن "الملح المميز له هو الوحدة المتكاملة للخواص التي يرتبط بها ويتفاعل بها مع الأشياء الأخرى"⁴.

ويمثل المكان الأرضية التي تشيد عليها جزئيات العمل الروائي كله⁵، وهو بمثابة القاعدة المادية الأولى التي يقوم عليها النص، لكي يستوعب عنصراً من عناصر العمل الروائي، مثل الحدث أو الشخصية أو الزمان، لأن تفرغ الحدث من سياقه المكاني يعني فقدان لدلالته⁶ وحيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة⁷ فعلاقة الأحداث بالمكان في العمل الروائي علاقة تلازم، إذ لا تتصور النظر إلى الأحداث بمعزل عن الأماكن التي تدور فيها، ومن خلال ربط المكان بالأحداث يمكننا تحديد العلاقة بينها وبين الشخصيات من حيث الدلالة على تطور الحكاية بين بداية القصة ونهايتها، وهكذا تتشابه الأجزاء لتعرض لنا وحدة النص القصصي⁸.

لا تأتي أهمية المكان لارتباطه بالأحداث فحسب، وإنما بوصفه عنصراً حكاثياً قائماً بذاته إلى جانب العناصر الفنية الأخرى المكونة للسرد الروائي⁹، لذا فهو عنصر فاعل في الشخصية الروائية يأخذ منها ويعطيها ويرتبط بحركيتها، بما يدفع أحداثها إلى الأمام دائماً¹⁰ ويقوم المكان بتحديد الملامح العامة للشخصية، بحيث يترك الأثر المميز لها، والأماكن التي تنتج شخصياتها المتميزة، بحيث نلاحظ الاختلاف بين شخصية الصحراء، وشخصية الجبل وكذا من يعيش في المدينة، إذ أن كل شخصية من هذه الشخصيات تختلف عن غيرها من الناحية الجسدية والنفسية والاجتماعية، وبهذا يتسع المكان ليشمل العلاقات بين الأمكنة والشخصيات والأحداث، إذ أن المكان من دون غيره يثير إحساساً بالمواطنة وإحساساً آخر بالمحلية حتى لتحسب الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه¹¹.

ومما سبق نصل إلى أن المكان يعد الإطار الذي تجري فيه الأحداث، ويجسد صراع الشخصيات، وكذلك يتسع ليكون نظاماً من العلاقات الوثيقة، التي تحمل الإحساس بمغزى الحياة من خلال وظيفته كمركز للحدث وعنواناً للشخصية، يبرز صفاتها وانتماءها الاجتماعي، كما يحمل الأفكار والمشاعر التي تدخل العمل الروائي فتؤثر فيه أو تتأثر به.

(2) البعد التركيبي للمكان:

يحمل المكان أبعاداً نفسية إضافة إلى وظائفه الفنية، وأبعاده الاجتماعية والتاريخية والدينية التي ترتبط به، حتى أننا نسترجع هذه السياقات والأبعاد عند تذكرنا للمكان الذي وقعت فيه، والواقع يبقى خارجاً مالم تجر فيه أفكار ويضع الإنسان معنى جديداً لأبعاد المكان، الذي يحوي ثنائيات تبدو متناقضة لكنها في الأصل متكاملة، فالرحلة تقابلها الإقامة، والقصر يقابله البيت القديم، والريف يقابل المدينة ولذا تخضع العلاقات الإنسانية لسلطة المكان حتى تأخذ دلالات تربطها بالواقع، ومن أمثلته:

أ- المكان الأليف والمكان المعادي:

يعيش الإنسان في ألفة وتناغم مع المكان وقد تتحول هذه الألفة إلى عداً حقيقي مع أماكن أخرى لا توجي بسحرها، ولا تحرك مشاعر صاحبها ولذا ينشأ عن ذلك نوع من التناقض الناشئ عن هذين النمطين نحو المكان وما يولده من عواطف وانفعالات تنعكس بالألفة أو العداً نحو المكان الذي رسخها و بثها في الشخصية، وهي أماكن قد يقيم فيها تحت ظرف خاص، "كالمنافي والسجون والمعتقلات"، أو الأماكن التي توجي بأنها مكامن للموت¹² كما حدث للبطل في رواية الملحد عندما تم اعتقاله وأدين في المحكمة عن تصرفاته وصار بينه وبين الإعدام قرب وهو ينتظر المصير المشؤوم في حين يمثل البيت مكاناً أليفاً لأنه جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول¹³ كما يعد البيت واحداً من الأماكن التي تحوي الأفكار والذكريات والأحلام الإنسانية التي تشدك إلى هذا المكان فالمكان الأليف إذن هو مكان المعيشة المقترنة بالدفء والشعور بأن ثمة حماية لهذا المكان من الخارج المعادي وتهديداته¹⁴ ويتجلى ذلك في الساحل الجزائري الذي حلّ به البطل وكذلك في فضاء الصحراء وما يزخر به من عادات وتقاليد وتراث شدّ إليه البطل وجعله ينهر بهذا الفضاء الجديد، على الرغم من المعاناة التي عاشها البطل وهو يعيش حياة التيه، وتحفه الأخطار من كل مكان ولكن مع ذلك وجد في الصحراء مكاناً أليفاً ومعادياً، فوجد في التأمل وتتبع الهوام الألفة والراحة، كما وجد في شظف العيش وما تخفي الصحراء من صعوبات وسطاً آخر معادياً وبهذا يعيش البطل هذه الثنائية المتكاملة التي يصنعها المكان.

ب- المكان المسرحي والمكان الكوني:

إن للمكان أبعاداً هندسية محددة، والمكان المسرحي يتحدد بالأبعاد ولكنه يوجي بالأحداث¹⁵ إذ أنه في المساحة المغلقة وحدها يمكن للصراع أن ينشأ وينمو وينتهي في حتمية¹⁶ ولكي يتحدد المكان المسرحي لابد أن ترسم المشاهد ويوصف الواقع مسرح الأحداث، بحيث تصبح ستارة من ستائر المسرح الخلفية، حين تقدم للمشاهد أو القارئ صورة ملموسة يسهل استيعابها، وهي نقل حقيقي للمكان الذي تتحرك فيه الأحداث و تجري فيه الأفعال الإنسانية¹⁷ وعلى ذلك فالمكان المسرحي مكان الاستكشاف، يعتمد على الاتجاه الأفقي

كما يستخدم العمق إن وجد، وهو مكان يضم بين جوانبه العلاقات الحقيقية الضمنية بين هذه الشخصيات¹⁸.

ومن أمثلة المكان المسرحي:

"أرانا مسجدا وبضع حوانيت وبساتين، ووقف بنا عند كل شيء نجهله فيهم"¹⁹

نقل لنا الكاتب في هذا المشهد جانبا من حياة الريف في منطقة حاسي خليفة، فتكلم عن المسجد والحوانيت والبساتين، وهي أماكن محددة محصورة تنقل لنا مشهدا من حياة القرية، غريبا بالنسبة لمن حل ضيفا فيها. ويقول في مشهد آخر "أثناء الطريق تأملت بيوتهم المبنية من الجبس، حيطانها قصيرة، أسقف غرفهم قباب، أكثر جدرانها غير مدهونة، لونها بني من أثر سطوع الشمس المتكرر"²⁰.

مشهد آخر ينقله الكاتب عن بيوت القرية المصنوعة من الجبس ذات الجدران²¹ القصيرة، الأسقف في شكل قباب يتلاءم مع الطبيعة الحارة، و خالية من الدهن، ولذا بدت بُنيّة من أثر عوامل الطبيعة وعلى رأسها أشعة الشمس الحارقة.

_أما من أمثلة المكان الكوني، فنقدّم هذا المثال:

استلقيات على الرمل الناعم مسرّحا بصري نحو السماء أتنعّم بالقمر الساهر مع جميع البشر المؤنس لكل مسافر، فأخذني النوم وأنا أفكر في الذي سيؤول إليه أمري"

فالمكان هنا غير محدود يوحي بحياة الصحراء التي يكثر فيها الرمل، ثم يتواصل بعينه مع السماء فيشاهد القمر الذي يحمل الصفاء كما يحمل ظلالا أخرى من الجمال عندما يراه أنيسا لكل غريب، يسهر مع جميع البشر دون تكبر أو عظمة فيسامرهم حتى يستسلموا إلى النوم، وانتظار المستقبل المجهول.

ثانيا: ملخص المدونة (الملحد):

رواية الملحد بقي بن يقظان، للكاتب الجزائري عبد الرشيد هميسي، والفائزة بجائزة راشد للإبداع لسنة 2020م تطرح الرواية موضوعا فلسفيا مهما أساسه قضية الإيمان والكفر في كل الشرائع، وكيف يتحوّل المؤمن إلى ملحد، وكيف يتحول الملحد إلى الإيمان، عندما يبصر من الآيات والعلامات التي تجعله يتحوّل في مساره من الضد إلى الضد على اقتناع ورضى.

وقعت أحداث الرواية في عدة مناطق، وتبدأ من مرسيليا بفرنسا تصور قصة البطل وهو تلميذ في الكنيسة، يتعلم التعاليم الدينية من معلّمه (جوزيف ماكرو) ويتأثر لذلك أشدّ التأثير ويرى أمّه تناديه بالقدّيس، ويعيش صداقة كبيرة مع "جورج"، وله خال يسمى "ديفيد" لكنه متحرر لا يؤمن بالتعاليم الكنسية بل كان يسخر منها. يوما بعد يوم، يعرف البطل أسراراً جديدة عن الكنيسة وعن رجالها وهم يمارسون أعمالهم المقدّسة، التي تحوي الخبث والرديلة، فيخالجه الشكّ وهو يراهم يمارسون المحرّم في صمت، ويعذبون ويقهرون غيرهم بقسوة الدّين ولذا اهتزّت ثقة البطل فيهم وصار يكثر الاجتماع والحديث والاستماع إلى خاله وهو يطرح الإشكالات وينوّر بصيرته، حتّى قرّر في نهاية المطاف التوقف عن الذهاب إلى الكنيسة، وكفر بما كان قد تعلمه ومارسه، واتّبع خاله (ديفيد) معلنا الكفر والإلحاد.

يعيش البطل تجربة جديدة مع الحرية والسخرية من كل شيء، وممارسة كل الأعمال التي كانت محرّمة، يمارس الكتابة الصحفية مع خاله زمنا، ثم ينتقل خاله إلى باريس، فيأخذه معه لممارسة العمل هناك.

يتغير المكان، فيجد نفسه في مدينة باذخة، وتنتفتح له أبواب الشهرة على مصراعها، فيشرع في كتابة و نشر المقالات والتشكيك في المقدس، والدعوة إلى الحرية والعيش بدون قيود، والسخرية بكل مقدس تحت غطاء الحرية.

عرض عليه خاله زيارة الجزائر ، فسافرا إلى هذا البلد، وشاهدا الساحل، ثم ذهبا إلى قرية في الجنوب الشرقي اسمها (حاسي خليفة) وأعجب البطل كثيرا بهذه الرحلة، وأعجب بالسكان وصفاتهم الحميدة التي لم يعرفها من قبل.

عاد إلى باريس، وكلّه أمل في العودة مرة ثانية إلى الجزائر، فكتب مؤسسة للعمل فقبلت الطلب، فأخذ أمّه وسافرا إلى الجزائر لبدأ حياة جديدة، وقضى بضعة أعوام هنا في الجزائر ثم نقل أمه إلى دار العجزة في (مريغو) فخلا له البيت ثم تموت أمّه، ويخبر بذلك فيظهر برودا كبيرا أمام هذا الحدث، والبطل يعيش نوعا من الاغتراب والعبثية حتى تتساوى أمامه كل الأشياء، ويعجز عن الاختيار، يشهد البطل احتكاك بين صديقه وأحد العرب، فيتدخل و يأخذ منه السلاح ثم يقابل ذلك العربي مرة أخرى، ويشهر في وجهه السكين، فيطلق البطل عليه الرصاص برودة ويتحوّل إلى مذنب ويمثل أمام العدالة ويعجز في الدفاع عن نفسه، وهو يرى أنه هالك لا محالة وحتى أصدقاؤه كان أغلب ما قالوه في المحكمة ضده لا معه.

سمع خاله بما وقع له فجاء مسرعا إلى الجزائر وقام بما يجب أن يقوم به لإنقاذه، بعد أن دفع مبلغا من المال رشوة للضابط وأخذه ليختبئ في صحراء حاسي خليفة حتى ينسى ويتدبر أمر عودته بعد حين.

يعيش البطل رحلة الاختباء في هذه القرية عند صديق خاله (مختار الخياط) فيقدم لنا وصفا رائعا لحياة الريف، من حيث العمران والطبيعة وحياة الناس، ويتعرف على إمام المسجد (سي لمين) ويدور بينهما حوار حول الوجود والخلق والإيمان والكفر، فيلاحظ ثبات الإمام وهو يحاول إحراجه والتشكيك في اعتقاده، لكنّه في كل مرة يلاحظ فيه من الأدلة والبراهين ما يدعوه إلى مراجعة الذات، والوقوف عند الأفكار التي آمن بها ثم بدأت تتلاشى شيئا فشيئا. اقترح عليه رحلة إلى الصحراء، ليتعرّف على أسرارها وخبايها، فوافق وتوجه الجميع إلى هذا الفضاء الشاسع، وعاشوا تجربة اليوم الأول فتعرّف على الهوام والنباتات وأعجب بهذا الفضاء البديع، لكنّه في اليوم الثاني خرج في الليل للتنزه فهبت الرياح وابتعد عن رفاهه، فضيّع طريق العودة وقد كلفه ذلك الضياع لمدة ثلاثة أشهر أن يتحمل المشاق. تدبر فيها الحصول على الطعام والشراب من الصحراء، وصنع مسكنه من الحطب والحلفاء، وأخذ يتبع هوام الصحراء ويتأملها بتدبر ويتساءل أمام هذه المخلوقات العجيبة، وكيف تتصرف؟، ومن علّمها ذلك؟، حتّى وصل في نهاية المطاف إلى الاعتراف بوجود الخالق، بعد أن لدغته الأفعى، ودعا الله فبعث إليه من يخلّصه، ويهدي إليه الحياة، من هنا يعود البطل إلى اليقين، ويترك الإلحاد، بعد ما خاض تجربة الصحراء وأدرك عن طريق التأمل في الكائنات الحية أن وراءها خالق عظيم هو الله.

ألاحظ من خلال العنوان، ومن خلال صفحات الرواية تناص الكاتب مع عمليين أدبيين هما قصة حي بن يقظان لابن طفيل التي من خلالها أوصل فكرة أن الإيمان بالله يكون عن طريقين الطريق الأول هو إرسال الأنبياء والرسول لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بينما الطريق الثاني خاص بالمفكرين ويكون عن طريق التأمل في هذا الوجود للوصول إلى الحقيقة المطلقة وهي الإيمان بخالق الوجود.

كما يتناص أيضا مع الكاتب الفرنسي (البير كامب) في روايته الغريب، ويعيش بلا هدف ويتصرف بمنتهى العبثية، مثله مثل بطل رواية الملحد عندما هجر الكنيسة وأعلن جهرا إلحاده وعاث في الأرض فسادا، والمشهد يتشابه في الروايتين عندما تموت أم الغريب وعندما تموت أم الملحد فلا يحرك ساكنا ولا يخالجه شعور بالألم والفقد أمام هذا المصاب، لأنهما كانا يعيشان نوعا من العبثية ولا جدوى الأشياء في هذا الكون القائم على الصدفة.

ثالثا: فضاء الصحراء كتاب مفتوح:

1. الصحراء في رواية الملحد:

تختلف التضاريس على كوكب الأرض، بين الجبال والسهول والهضاب والبحار والأنهار والصحاري، ولكل واحد من هذه الأشكال ما يميزه من سحر أو قبج، أو جمال وبهاء، وفي هذا المقال سأحاول تتبع رمز الصحراء في هذا المتن الروائي، وما يحمله من أسرار ورموز ودلالات.

في بداية الرواية، يبدأ الكاتب السرد من الذاكرة الحية التي عاشت ذكريات جميلة في صحراء الجزائر، عندما التقى البطل مريم الشابة ذات العينين الأندلسيتين، ووجد فيها ما لم يجده في نساء باريس، فحكم على الحياة بالسخاء، وعلى القدر أو الحظ بالكرم حين قال "وهل هو القدر أو الحظ الذي أخذني من باريس الباذخة إلى جنوب الجزائر كي أتعثرك في قرية مرمية في الصحراء. ما أعظم الحياة حين تهبنا أكثر مما نتوقع". وقد مرّت أربعون سنة من عمره، لم يكن يؤمن بالأساطير والعجائب وهو الفيلسوف المفكر، ولكن حين التقى (مريم)، هدية الصحراء، أدرك خطأه وجهله فقال: "كنت مخطئا و غارقا في الجهل، فللصحراء أساطيرها وأنت أجملها".

تحمل الصحراء في بداية الرواية الحب لهذا الغريب المسافر، المفتش عن ذاته الضائعة، فتذوب غربته، ويعود إليه الأمل عبر سحر الصحراء و أساطيرها و أعاجيبها التي حوّلت فيه الجذب إلى خصب و نماء، و اليأس إلى أمل، والغربة إلى أنس والتقاء.

2. السفر إلى الجزائر تجديد للحياة:

أمضى البطل زمنا طويلا في فرنسا، بين مارسيليا مسقط رأسه، وباريس العاصمة الجميلة التي انتقل إليها، فعاش الاغتراب الحقيقي في هذا الوجود العبثي، وأدرك لا جدوى الوجود، الصائر إلى العدم والضياع، في هذه الأثناء عرض عليه خاله السفر إلى الجزائر، و شوّقه بأن فيها ما لا يوجد في فرنسا، وخاصة الصحراء فوافق وذهب إلى الجزائر، فيقدم السارد وصفا بديعا لصحراء الجزائر التي مكث فيها قرابة الشهر، في قرية اسمها حاسي خليفة، فتعرّف على عيش البدو، وكرم البدو، حين استضافهما رجل يسمى (مختار الخياط) الذي ينتهي إلى أصول أندلسية، ويحبّ الشاي، ولا يجيد الفرنسية جيدا، وكانت له بنت في السادسة عشر من عمرها (21).

في هذا المشهد، يلتقي البطل وخاله وجها لوجه مع الصحراء، فيصف أخلاق أهلها من البدو وعيشهم الخشن، وكرم الضيافة عندهم، المتوارث جيلا بعد جيل، وإن تغيّرت بعض الملامح عندهم، كلون البشرة أو العينين، فتفسر وتؤول تأويلا تاريخيا كما فعل مختار الخياط حين ربط ذلك بجذوره الضاربة في عمق التاريخ الإسلامي في الأندلس، عندما أخبر أن أصوله أندلسية، وفي هذا ربط بين الحاضر و الماضي، وحين يشدّه إلى جذوره الأندلسية، عندما يتذكر أجداده الذين سكنوا تلك الأصقاع من أوروبا ثم عادوا إلى الصحراء، كما يمكننا

الربط بين بعض الصفات الحميدة والمقدسة في الصحراء مثل الكرم وبين البيئة القاسية التي يعيشون فيها ، فعندما يسافر الفرد في الصحراء ، لا يدري إن كان سيصل إلى مبتغاه أو قد يهلك دونه ، بالضيق أو بنفاد الطعام أو الشراب ، فلو أغلق كل ساكن بيته في وجه الضيف لهلك كل من سافر في الصحراء ، ولذا نرى أن هذا السلوك أملت به البيئة القاسية التي يعيش فيها البدو وهي الصحراء ، قديما في جزيرة العرب وحديثا في صحراء الجزائر .

3. العودة مرة أخرى إلى القرية في الصحراء كملاذ:

أمضى البطل أياما حزينة في السجن ، بعدما تمت إدانته بالجرم ، وهو ينتظر حكم الإعدام ، حتى سمع خاله بما وقع ، فأسرع إليه وخلصه من هذا المأزق بعدما رثى الضابط ودبر تهريبه ، فتم له ذلك . في هذه الأثناء تتحول الصحراء إلى ملاذ آمن للبطل الهارب من العقوبة ، عندما يختار له خاله قرية حاسي خليفة ملجأ يلوذ به في هذه الأثناء العصبية ، أو عند وصوله يقدم لنا وصفا لهذه الواحة الجميلة ، وهي تزدان بنخيلها وأشجارها ورمالها وروائح الحقول المنبعثة من كل مكان ، وقد بسط القمر ضوءه الفضي على الكون فزاده جمالا ورونقا ، إذ يقول "استلقيت على الرمل الناعم مسرّحا بصري نحو السماء أتغنم بالقمر الساهر مع جميع البشر المؤنس لكل مسافر ، فأخذني النوم وأنا أفكر في الذي سيؤول إليه أمري"²²

ثم يقترح عليهما مختار جولة في القرية ، فينقل لنا مشاهد عدة منها: نهيق الحمار وصياح الديكة ، والمسجد والحوانيت والبساتين ، وفي هذه الجولة تعرّف البطل على إمام المسجد الكبير وكان يدعى (سي لمين) نقل لنا الكاتب جانبا مهما من الحياة اليومية في هذه الواحة المتواجدة بالصحراء الجزائرية .

وفي بيت مختار ، بين النخيل والطبيعة الجميلة رأى ابنة مختار خلال الليل ، وعندما دقق النظر في عينيها سمعهما يقولان له "هنا منتهاك لا مهرب لك ولا مأوى ، ضع فينا تلق رشذك"²³ عبارات سمعها أو تخيلها البطل تحمل الكثير من الأسئلة الوجودية التي كان يعاني منها البطل وتقدم حلولا مناسبة للخروج من التيه والوصول إلى الرشد بعد هذه الرحلة الطويلة ، حتى يتحوّل من الضياع إلى الوجود والأمان .

4. اللقاءات وحوارات افكار بين البطل بقي وسي لمين :

يلتقي البطل (باقي) مع الإمام (سي لمين) ، ليدور بينهما حوار عميق حول مواضيع شتى ، منها الخلق والخالق والوجود وفي كل مرة يحاول الإمام بهدوئه تقديم الدواء النافع للغريب ، وفيه يبرهن له على صحة ما آمن به الإمام ، ويسأل البطل هل وجدت تلك السعادة وأنت في شظف العيش ، وسط هذه الصحراء القاسية ، فيجيبه "الإنسان اذا عشق ربه حقّ العشق فإنّ كل الأشياء دون الله تغدو ترابا ، وتستوي عنده الحياة بحلوها و مرها ...إنّ السعادة الحقيقية لا تؤخذ من الأشياء الفانية ، وإنما تكون من خالقها"²⁴

حوار في الأفكار يستطيع الإمام توصيل صوته إلى البطل ومقارعة أفكاره الخاطئة حتى يقوم بمراجعة نفسه مرة ثانية وهو الملحد ، الساخر من كل شيء ، ويغلب هوى النفس على كل هوى ، رافضا كل خيط يحاول إرجاعه إلى اليقين .

5. الرحلة إلى الصحراء ، والوصول إلى اليقين:

في هذه المرحلة دعا الإمام (سي لمين) البطل باقي إلى القيام برحلة إلى الصحراء تدوم يومين ، وشوقه إلى جمالها وأسرارها الفريدة التي لا تتواجد إلا في البادية ، فوافق البطل ، يقول الراوي "دعاني إلى الخروج معه ، ووعدني أنني سأرى في عرض الصحراء أشياء ليست في البادية ولن أراها ما عشت"²⁵

وتبدأ الرحلة بوصول الموكب إلى الصحراء، ويبدأ كل فرد القيام بواجبه لتحضير ما يؤمن لهم الحياة الكريمة، فمنهم من نصب الخيمة، ومنهم من جمع الحطب، ومنهم من اشتغل بطهي الطعام وتحضير خبز الملة ثم خرج البطل مع مختار ليريه آثار بعض الهوام على الأرض، ويصف له ما رآياه في هذه البيئة الصحراوية القاسية. في الليل خرج البطل يتمشى على الرمل هائما، تتجاذبه قوى كثيرة، حتى ابتعد كثيرا عن الرفاق، وهبت الرياح فمحت آثاره على الرمل وضيع الاتجاهات بعد ما ضاع الأثر، ووجد نفسه يعيش في دوامة التيه، ولا يعرف للعودة طريقا يسلكه، هكذا تبدأ رحلة الضياع نحو المجهول، أو رحلة التعرف على الذات ومراجعة الأفكار التي طالما عشت في فكر البطل، وتركته يعيش نوعا من التذبذب وعدم الاستقرار، جرّب أشياء كثيرة للعودة إلى الرفاق، وفي الأخير خضع لمصيره، وأدرك بوضوح "أن تضيق في الصحراء لا يعني إلا شيئا واحدا وهو أن الموت قادم إليك هذا الذي كنت أقوله لنفسه في الليل عندما كنت أتوسد التراب تحت شجرة (زيتا) قبيل النوم قليلا"²⁶.

تهاجمه الأسئلة الكثيرة التي لا يجد لها حلولا، فيدعها لشأنها ويقول: تركت الأسئلة مفتوحة كما الصحراء التي أنا ضائع فيها، لعل يوما ما أفهم الذي انغلق علي فهمه"²⁷ عندما يبدأ الجو وتشرق الشمس، يبدأ البطل يفكر في الحصول على القوت والماء قبل التفكير في النجاة من هذا الوضع الذي يعيشه، ويبدأ في السؤال عن الشيء الذي يؤكل في الصحراء ليرد به سطوة الجوع، ويتمسك بالحياة، من هنا تبدأ رحلة الوجود، والبحث عن الطعام، فيجده في السقنقور الذي عرفه مع أصدقائه في الرحلة، فيجده ويتعرف على طريقة ذبحه وتنظيفه، وبعد ذلك يهتدي إلى طريقة إشعال النار لطبخه وأكله، وبعد ذلك يحس بالعطش فيتبع المنخفضات وأماكن النبات ويقوم بالحفر حتى يصل إلى منابع الماء، وبذلك يكون قد اهتدى إلى تحصيل غذائه وشرابه، وحافظ على الوجود، ولكن لا يأتي ذلك إلا بعد الجهد والتعب، يقول البطل "في الصحراء حياة أيضا، لكنها فترة، كأنما تتسرب من منخر إبرة، الصحراء لا تعطيك شيئا إلا إذا كافحت من أجله، لا تعطيك إلا إذا أثبت لها أنك أهل له، كأن أشياءها عزيزة، لا تعطى لكل طالب، وربما هذا أول أسرار الصحراء"²⁸ صنع مأواه وحصل على طعامه و مائه، ثم بدأ رحلة جديدة، رحلة التأمل وتتبع المخلوقات على الأرض وطرح الأسئلة، فلاحظ هوما كثيرة، لكن الذي استوقفه الجربوع وطريقة حفره في الأرض، وكيف يضيئ الجحر للطوارئ والأخطار ويتساءل من علمه ذلك؟ وألوان الهوام المشابهة للون البيئة حتى تساعد على التمويه والاختفاء، من جعلها هكذا؟ لماذا العقرب لا تخرج إلا في الليل؟ لماذا النملة تموت إذا أبعدت عن مجتمعها. ولماذا يحكم على النملة بالإعدام إذا كررت الكذب عن باقي النمل؟ وكيف ينسج العنكبوت الشبكة، وكيف يصطاد فريسته فيأكل ويخبي ما بقي إلى جوع آخر ثم يقف وقفة متأمل أمام الحرباء فيرصد لونها المساعد على التمويه، كما يرصد حركتها البطيئة وهي تنتقل بين النباتات، كما وقف حائرا أمام لسانها الطويل والسريع وهو ينقض على الفريسة، من هدى الحرباء، وجهزها بكل ما تملك لكي تعيش في الصحراء؟

تتبع الكثير وأدرك أن وراء هذه الحياة قانونا وأسرارا. حتى النباتات الصحراوية تكيّفت مع واقعها الشحيح المياه، فتجسد ذلك في طول جذورها وفي شكل أوراقها، من فعل بها ذلك، عندما وصل إلى السؤال الحاسم حول هذه القوانين والتناسق العجيب بين البيئة والهوام هل هو وليد الصدفة؟ وهل يمكن للصدفة أن تتكرر مع كل هذه

المخلوقات؟ عندئذ اهتدى إلى سر عجيب مفاده: "إن أعظم سر استنطقته الصحراء هو: إن وراء كل شيء شيئاً"²⁹

_ صحا يوما فوجد أمامه جملاً ضائعاً في الصحراء، فسقاه من الماء، ثم صار الجمال محط تأمله، وهو يقف على أسرار خلقه سرا بعد سر، ثم انقلب التأمل وتحول إلى ذاته وإلى طريقة خلقه في هذا الوجود، وأدرك أن في الخلق حكمة بالغة لا تدرك إلا بعد التأمل الطويل عندما تهاجمه أفعى وتقوم بلدغه ويحس بالألم في ساقه، وتضيق الدنيا في عينيه، بكى وتوجه إلى خالقه بالبكاء، عندئذ بعث الله إليه من يخلصه، ويمد إليه يد العون، فجاء ذلك البدوي الذي يبحث عن جملة، فأنقذه وساعده في العودة إلى القرية التي كان يسكنها قبل هذا التطواف والضياح في الصحراء، ولكنه عرف الله عن قرب وآمن به بعد الضياح، وأدرك رحمته وعنايته بالخلق، وكأني بالرواية تتناص مع قصة حي بن يقظان التي كتبها ابن طفيل، عن الطفل الذي تربى في الغابة ولم يعرف خالقه إلا بعد التأمل والتفكير في ملكوت الله، وكذلك بطل هذه الرواية (باقي) الذي جاء ملحداً، ولكنه بعدما قضى ثلاثة شهور في الصحراء يتأمل كل ما تقع عليه عيناه قد وصل إلى اليقين وأدرك وجود الله هكذا يصل أصحاب الفكر والعقول إلى هذه الحقيقة المطلقة بعد التأمل وطول التفكير، بينما العامة لا يصلون إلى ذلك، ولذا يرسل الله إليهم الأنبياء والرسل للوصول إلى حقيقة الإيمان.

خاتمة:

وفي نهاية هذا المقال نصل إلى أن العمل الروائي يقوم على عدة عناصر منها السرد والوصف، والشخصيات، والزمان والمكان ولكل عنصر من هذه العناصر دوره في تحريك الأحداث والوصول بها إلى التفاعل والصراع، وإن للمكان دوره البارز في خلق الحيز الحيوي الذي تتحرك ضمنه الشخصيات، والمكان أنواع منه المحدد ومنه المفتوح، وقد ركزنا على الصحراء باعتبارها مكاناً مفتوحاً يحمل الكثير من الدلالات المرتبطة بالواقع الذي يحمله، وعن طريق هذا الوسط استطاع الروائي أن يجمع بين صور التاريخ والأسطورة وصراع الأفكار في نقل محتوى الفكرة التي يريد توصيلها إلى القارئ.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ علي عبد المعطي محمد، تيارات فلسفية معاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1986، ص 280_281.
- ² ينظر: ياسين النصير، الرواية والمكان: دراسة المكان الروائي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط 2، 2010، ص 09.
- ³ محمد صابر عبيد و سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي دراسة في الملحمة الروائية (مدارات الشرق لنبييل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط 1، 2008، ص 229.
- ⁴ ينظر: ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسات نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986، ص 21.
- ⁵ ينظر: ياسين النصير، الرواية والمكان الروائي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط 2، 2010، ص 9.
- ⁶ ينظر: حسين النعيمي، جدلية الحضور بين الإنسان والمكان، مجلة النص الجديد، السعودية، عدد 8، 1988، ص 22.
- ⁷ ينظر: عواد علي، تشكيل الفضاء في المتخيل الروائي، مجلة عمان، عدد 39، 1998، ص 33.
- ⁸ عبد الوهاب زعفران، المكان في رسالة الغفران، أشكاله ووظائفه، دار صامد للنشر، تونس، ط 2، 1985، ص 20.
- ⁹ ينظر: محمد عزام، شعرية الخطاب السردية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 65.
- ¹⁰ ينظر: شاكراً النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارابي، عمان، 1994، ص 96.
- ¹¹ ينظر: ياسين النصير، المصدر السابق، ص 29.
- ¹² جاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988، ص 45.

- ¹³ ينظر: المصدر نفسه، ص 45.
- ¹⁴ إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2000، ص 237.
- ¹⁵ نهان حسون السعدون، شخصيات قصة يوسف في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2003، ص 251.
- ¹⁶ أدوين موير، بناء الرواية، تر: إبراهيم الصيرفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، دار الجيل للطباعة، مصر، 1965، ص 56.
- ¹⁷ ينظر: محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط7، 1979، ص 17_18.
- ¹⁸ جنداري، المصدر السابق الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، ص 261.
- ¹⁹ عبد الرشيد همدي، الملحد بقي بن يقظان (رواية)، هيم للنشر، دب، دط، دت، ص 5.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 5.
- ²¹ ينظر: الرواية، ص 44، 45.
- ²² الرواية، ص 55.
- ²³ الرواية، ص 58.
- ²⁴ الرواية، ص 59.
- ²⁵ الرواية، ص 81.
- ²⁶ الرواية، ص 89.
- ²⁷ الرواية، ص 90.
- ²⁸ الرواية، ص 92.
- ²⁹ الرواية، ص 101.

المصادر والمراجع:

- (1) إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2000، ص 237.
- (2) أدوين موير، بناء الرواية، تر: إبراهيم الصيرفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، دار الجيل للطباعة، مصر، 1965، ص 56.
- (3) جاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988، ص 45.
- (4) حسين النعيمي، جدلية الحضور بين الإنسان والمكان، مجلة النص الجديد، السعودية، عدد 8، 1988، ص 22.
- (5) شاكرا النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارابي، عمان، 1994، ص 96.
- (6) عبد الرشيد همدي، الملحد بقي بن يقظان (رواية)، هيم للنشر، دب، دط، دت، ص 5.
- (7) عبد الوهاب زعفران، المكان في رسالة الغفران، أشكاله ووظائفه، دار صامد للنشر، تونس، ط2، 1985، ص 20.
- (8) علي عبد المعطي محمد، تيارات فلسفية معاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1986، ص 280_281.
- (9) عواد علي، تشكيل الفضاء في المتخيل الروائي، مجلة عمان، عدد 39، 1998، ص 33.
- (10) محمد صابر عبيد وسوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي دراسة في الملحمة الروائية (مدارات الشرق لنبييل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2008، ص 229.
- (11) محمد عزام، شعرية الخطاب السردي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 65.
- (12) محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط7، 1979، ص 17_18.
- (13) نهان حسون السعدون، شخصيات قصة يوسف في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2003، ص 251.
- (14) ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسات نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986، ص 21.
- (15) ياسين النصير، الرواية والمكان: دراسة المكان الروائي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2010، ص 09.